الاحتلال الفرنسي لأقصى الجنوب الغربي الجزائري والمجابهة العسكرية والثقافية

✍ د. محفوظ رموم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة أدرار

اصطدم التوغل الفرنسي بالجنوب الغربي الجزائري بمقاومة شعبية عسكرية، حاولت من خلال الإمكانات المتاحة، صد هذا التوغل، كما رافق هذا الموقف العسكري المبدئي والطبيعي، توظيف الموروث الثقافي الشعبي ضد الوجود الاستعماري، وتسجيل الأحداث لحفظ الذاكرة الوطنية من الاندثار. وعليه سنحاول من خلال هذا المقال رصد عوامل الانجذاب الاستعماري نحو مناطق صحراوية تميزت بصعوبتها جغرافيا ومناخيا، وتتبع أحداث التوغل الاستعماري في أقصى الجنوب الغربي للجزائر، والبحث في أشكال المجابهة العسكرية والثقافية، التي عرقلت المشروع الفرنسي في المنطقة.

L'Occupation française de l'extrême sud-ouest de l'Algérie et la confrontation militaire

Les missions scientifiques et d'exploitation organisées par la France dans le sud algérien font partie d'un plan d'occupation et d'extension de l'influence coloniale. Des nombreuses raisons tant économiques que politique et stratégiques ont nourri la volonté de la France d'étendre son hégémonie sur cette région.

La stratégie d'occupation coloniale à Touat requiéra trois missions: La première expédition avait pour cible Tidikelt au sud de Touat, tandis que la seconde visa

Tijourarine au nord de Touat, quant à la troisième expédition elle servit aux deux corps expéditionnaires de rallier le centre de Touat et sa capitale historique Tmantit, sous la férule du générale Servieres.

La France parachèvera son emprise sur le sud-ouest algérien entre 1899 et 1903, et c'est à Laperrine que fut confié le commandement militaire en 1902. Les années qui suivant connaitront une réorganisation des zones occupées, pour permettre aux autorités coloniales d'annexer le Sahara au sud oranaise.

L'insurrection dans l'extrême sud-ouest algérien connaitra plusieurs formes: ainsi l'attachement précoce, valeurs culturelles sera le rempart contre l'influence de la culture française dans la région. Mais aussi afin de contrer la propagande de l'ennemie, pour amoindrir les différentes insurrections dans le sud algérien.

La tradition orale jouera un rôle déterminant dans le combat mené contre l'occupant dans le sud algérien. Les poètes de la région on joué un rôle précieuse dans le travail de mémoire qu'ils se sont assigné.

المقدمة:

كانت البعثات الاستكشافية والعلمية التي نظمتها فرنسا في الصحراء جزء من مخطط تمهيدي لاحتلالها وبسط النفوذ الاستعماري عليها، وقد تعددت الأسباب والعوامل التي جعلت فرنسا تفكر في مد نفوذها في هذه المنطقة النائية والصحراوية، بين أسباب اقتصادية، وأخرى سياسية إستراتيجية، حيث تزخر بثروات طبيعية مهمة لاستمرار الاقتصاد الفرنسي ومعدلات نموه، في مواجهة الاقتصاديات الأوروبية المنافسة، خاصة وأن الأخير يعتمد بشكل كبير على موارد مستعمرات ما وراء البحر. من جهة أخرى تعتبر الصحراء بموقعها الجغرافي البوابة لتواصل فرنسا مع مستعمراتها

في إفريقيا وإحكام قبضتها على القارة السمراء، ولتحقيق هذه الأهداف اتبعت فرنسا خطة اعتمدت تطويق أقصى الجنوب الغربي من جهات ثلاث عن طريق حملات استكشافية عسكرية متتابعة بين سنتي 1899-1902م، هذه الإستراتيجية اصطدمت بمقاومة محلية لتمدد النفوذ الفرنسي بالمنطقة. وعليه تطرح إشكالية مفادها: ما هي أبرز الحملات الاستكشافية التي مهدت الطريق لاحتلال الجنوب الغربي للجزائر؟ وما هو رد فعل السكان؟ وفيما تجلت أشكال المقاومة والمجابهة؟

أولا: عوامل وأسباب الاحتلال:

1- الأسباب الاقتصادية والإستراتيجية:

سعت فرنسا لاحتلال منطقة توات منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وازدادت أطماعها، من خلال تكثيف عمليات الكشف لأهم الطرق الصحراوية التي تعبر المنطقة، والتي تربط شمال الصحراء بمنطقة السودان، أين تتركز معظم مستعمرات فرنسا جنوب الصحراء، والتي تشكل جزءا مهما مما بات يعرف بإفريقيا الفرنسية. وكان غياب فرنسا عن هذه المنطقة يمثل قطيعة جغرافية بين مستعمراتها في شمال القارة الإفريقية والأخرى المتواجدة في جنوبه، ومن ثم كان من الإستراتيجية العسكرية ضم حلقة الوصل التي تربط المجالين الحيويين، بالنسبة لفرنسا الاستعمارية، وذلك لربط ممتلكاتها في شمال إفريقيا بممتلكاتها في القارة السمراء، وهذا ما يشكل وحدة لأراضي الإمبراطورية.

إضافة إلى ما سينتج عن هكذا ربط، من تسهيل مرور القوافل التجارية بين الشمال والجنوب، ومن ثم وضع اليد على تجارة الصحراء التي تذر مداخيل لا تحصى، ناهيك عن ما سيجره ذلك من إنعاش الاقتصاد الفرنسي.

لقد كانت توات ملتقى لطريقين رئيسيين:

فالطريق الرئيسي الأول يربط توات بشمال إفريقيا، ويتشكل بدوره من ثلاث طرق كبيرة: يتجه الأول نحو الشمال مباشرة حيث يخترق العرق الغربي الكبير باتجاه واد الناموس، وتستخدمه القوافل المتجهة إلى عين الصفراء، المشرية، أفلو، سعيدة،

والمنطقة الوسطى لشمال إفريقيا. والثاني باتجاه الشمال الشرقي، حيث تسلكه القوافل المتجهة إلى الشرق، والقادمة من الفرعين الثانويين الذين يوحدان القوافل الملتقية بين منطقة تيجورارين وتيديكلت، حيث يجتمعان ليصلا المنيعة وغرداية، ومن ثم إلى غات وغدامس وطرابلس وجنوب تونس. في حين يتجه الطريق الثالث نحو الشمال الغربي عبر مجرى وادي الساورة، وهو طريق قوافل تلمسان، وهران، سجلماسة، تافيلالت، مراكش وفاس.[1]

أما الطريق الرئيسي الثاني فهو الذي يربط توات بالسودان الغربي، ويتفرع هو الآخر إلى اتجاهات ثلاث: الأول نحو شرق السودان الغربي، حيث يخرج من منطقة عين صالح مخترقا أراضي قبائل توارق أدرار في منطقتي أنزقوير وواي، ليتفرع بدوره إلى اتجاهات مختلفة تغطى الأراضي الشرقية للسودان. والثاني نحو وسط السودان حيث يتخذ من منطقة أقبلي منطلقا عبر أراضي التوارق في أروان وتاوديني ليصل المنطقة بتمبوكتو. والثالث نحو غرب السودان الغربي حيث يربط المنطقة بأراضي مملكة غانا.[2]

لقد كانت تجارة الصحراء مهمة في العصر الوسيط والحديث، بما كانت تذره من أموال عل خزينة الدول في شمال إفريقيا، ومن بضائع على أسواق الشمال حيث كانت المنطقة أحد أهم مصادر تجارة العبيد والذهب والعاج والأقطان وريش النعام في العالم.

2- دور توات في المقاومات الشعبية الجزائرية قبل احتلالها:[3]

شكلت منطقة توات بجغرافيتها البعيدة عن الشمال، وطبوغرافيتها الوعرة – حيث أراضيها عبارة عن عرق أو رق، إضافة إلى جفاف مناخها الصحراوي القاسي- ملاذا لكل خارج عن طاعة السلطة المركزية، ليس في العصر الحديث فحسب بل ومنذ الاحتلال الروماني.

كان لوقوع منطقة توات في قلب الصحراء الكبرى ميزة، جعلتها بعيدة عن كل الأزمات الداخلية التي كانت منطقة شمال إفريقيا مسرحا لها، في إطار الصراع بين مختلف الممالك البربرية منذ العصر القديم على أيام مملكة نوميديا الشرقية والغربية

وموريطانيا، وحتى الفترة الإسلامية أيام الأغالبة والأدارسة والرستميين والفاطميين والمرابطين والموحدين والمرينيين والزيانيين، أو الصراعات مع الخارج حين تعرضت المنطقة للاحتلال اليوناني أو الروماني أو الوندالي أو الفرنسي. هذه الميزة الخاصة جعلت من الإقليم ملجأ للمتمردين أو المقاومين أو الهاربين أو الفارين أو الخارجين عن القانون، وفي كل الحالات كانت ملاذا آمنا لكل خارج عن السلطة، وسواء كان العدو داخلي أو خارجي.

– درور أقصى الجنوب الغربي في ثورة الشريف محمد بن عبد الله (1851–1861م):

لم يتغير دور إقليم توات التاريخي إبان الحقبة الاستعمارية للجزائر، في استمراره ملجأ للمقاومين الذين اتخذوا منه نقطة ارتكاز للراحة، وموقعا استراتيجيا للإمداد بالعتاد والمؤن، ومهربا آمنا للاحتماء بعد هزيمة أو انكسار، ومركزا لتجميع الفلول والاستعداد مجددا للمقاومة.

فقد لجأ إلى توات الشريف محمد بن عبد الله السنوسي الذي قاد المقاومة بين(1851–1861م) وهو الذي عينته فرنسا خليفة لها على تلمسان ليكون معها ضد الأمير عبد القادر، لكنه لم يحقق طموحاتها فأقالته سنة 1849، وعند رجوعه من أداء فريضة الحج أعلن الثورة الشعبية التي انتشرت في المنطقة الممتدة بين بسكرة، ورقلة، الأغواط وغرداية، وألحق بالقوات الفرنسية خسائر فادحة و ذلك منذ 1851م.

قامت فرنسا بحشد قواتها ومحاصرته في الأغواط في 4 ديسمبر 1851م، إلا أنها فشلت في إخماد ثورته التي امتدت إلى كامل الصحراء الجنوبية الشرقية، حيث سجل فيها انتصارا باهرا في معركة المقارين في 29 نوفمبر1853م. ثم توجه إلى الجنوب الغربي حيث دخل في معارك مع القوات الفرنسية، ومنه إلى توات حيث قام بإعادة بناء وتنظيم قواته إلى غاية نهاية سنة 1959م، حيث اضطر إلى نقل قواته إلى تقرت، لكن القوات الفرنسية لحقته بعد ذلك، كما تمكن من تحرير ورقلة سنة

1861 واستمر في مقاومته للقوات الفرنسية في الصحراء حتى ألقي عليه القبض، ثم فر وانضم إلى ثورة أولاد سيدي الشيخ، وثورة الصبايحية، كما تحالف مع بوشوشة.[4]

– درور أقصى الجنوب الغربي في ثورة بوشوشة بين (1870–1874م):

احتضنت توات مقاومة أحمد بن التومي بن إبراهيم المدعو بوشوشة، الذي ولد بالمنيعة سنة 1827، وعلى الرغم من أن مراجع كثيرة تتهمه بأنه وراء تشكيل جماعة المداقنة بتيديكلت التي كان أفرادها ينشطون كقطاع طرق في منطقة توات، ويجوبون الصحراء بحثا عن المؤن، بسبب الضائقة المالية، والجفاف والمجاعة التي عصفت بالجزائر سنة 1867م، إلا أنه تحول إلى زعيم وطني عندما أعلن الثورة ضد فرنسا، فاتخذ من عاصمة تيديكلت مقرا لجماعته وبويع زعيما بعين صالح في فيفري 1870م.[5]

بعد أن تمت الزعامة لبوشوشة، استعاد زمام المبادرة ضد الوجود الفرنسي بالصحراء الجزائرية، كانت مقاومته في البداية بنواحي متليلي حيث اصطدم لأول مرة بالقوات الفرنسية في بداية 1870م، وحقق انتصارات كبيرة عليها، في الميدان فانتقل إلى جهات أخرى[6] حيث سيطر على المنطقة الممتدة بين متليلي والرويسات ووادي سوف وورقلة التي عين عليها حليفه بن ناصر بن شهرة، ثم تقرت التي دخلها في5 مارس 1870م وعين عليها حليفه محمد العربي ثم قفل راجعا إلى عاصمته عين صالح لجمع الأنصار والمؤن استعدادا لجولة أخرى.[7]

كما نسق ثورته مع الشريف محمد بن عبد الله وبن ناصر بن شهرة مما مكنه من تحقيق انتصارات باهرة، لكن القدر لم يمهله، حيث كانت فرنسا قد قضت على ثورة المقراني (1871-1872م) وتفرغت للقضاء عليه، واستعادت تقرت بعد هجوم عنيف يوم 2 جانفي 1872م،[8] فاضطر إلى التراجع نحو وسط الصحراء، حيث اقتصر نشاطه على توات بقصوره المختلفة كتيديكلت وتيميمون وموديدر وشروين وطلمين وأوقروت ودلدول وتاغوزي، وقاد منها حرب عصابات ضد الوجود الفرنسي على مشارف وحدود إقليم توات حيث كانت القوات الفرنسية ترابط هناك

في المنيعة وتسير البعثات والطوابير العسكرية استعدادا لاحتلال الإقليم، حتى ألقي عليه القبض في المنيعة بعد معركة الميلوك من طرف أحد أعدائه الذي سلمه لفرنسا، فنفذ فيه حكم الإعدام يوم29 جوان 1874 بمعسكر الزيتون بقسنطينة، بينما استقر أنصاره في عين صالح، وانضم آخرون لمقاومة الشيخ بوعمامة بقصر أولاد عبو بمنطقة دلدول لاحقا،[9] واتجه التوارق منهم إلى منطقة الأهقار لمواصلة نشاطهم المقاومة هناك.

نجح بوشوشة في استهداف الوجود الفرنسي في وسط الصحراء الجزائرية، من خلال استهداف قواتها وعملائها، مما جعلها لا تدخر جهدا في القضاء عليه، وما كان لها أن تتمكن من ذلك لولا عملائها الكثر بالمنطقة، مما جعل ثورته تستنفد جل مجهوداتها ضد أعدائه من العملاء، ومن ثم استنفد قوته في المعارك الجانبية، ولو أن ذلك لا ينقص من عمله شيئا، فحسبه أنه حارب ضد القوات الفرنسية كما حارب أعوانها العملاء.

– ثورة الشيخ بوعمامة في أقصى الجنوب الغربي الجزائري (1881–1908م):

تنسب هذه المقاومة إلى قائدها الشيخ محمد بن العربي المدعو بالشيخ بوعمامة الذي قاد ثورة أولاد سيدي الشيخ الغرابة،[10] بعد أن تمكنت فرنسا من القضاء على ثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة سنة 1864م. وقد بدأ نفوذها يزداد وقواتها تتقدم في الصحراء، عندما رفع بوعمامة راية الجهاد، وأظهر مقدرة فائقة في القيادة والتنظيم، حتى قال فيه سوابيه (Soyer) القائد العسكري لدائرة البيض، إثر مقابلته له بزاويته بمقره التحتاني:" إن أحاديثه تنم عن سعة في الأفكار، وملكة سياسية، وطاقة عقلية، لم تعهد عند غيره."[11]

انطلقت هذه الثورة بمقتل الملازم الأول الفرنسي وانيرونز (wanironze) وحراسه في 22 أفريل 1881م في عين لحجل، بعدها دعى بوعمامة قبائل المناطق الصحراوية للانضواء تحت رايته، فاستجاب السكان، وتقدمت مسيرة الثورة مع مرور

الوقت، ولم تتمكن الطوابير التي أرسلتها فرنسا من القضاء عليها إلا بعد معارك عديدة.

اضطر بوعمامة بعد ذلك، إلى مغادرة منطقة فقيق مسقط رأسه نحو أقصى الجنوب، فقدم توات ونزل بإقليم تيجورارين وبالضبط في منطقة جدير الغربي وقصور دلدول سنة 1894م، فكانت له بمثابة القاعدة الخلفية للتموين، ومكانا لإعادة التنظيم ورص الصفوف، كما استفاد من انضمام القبائل الزناتية البربرية وقبائل الشعانبة العربية إليه، فقدموا له الحماية والدعم المادي والمعنوي، واجتمعت له هناك قوة مسلحة أحسن تسليح، خاض بواسطتها حرب عصابات على مدى عقد من الزمن، من ذلك هجوم يوم 11 سبتمبر 1904م على دورية من الكتيبة الصحراوية لقوراره. لكن رد فرنسا على هذه القبائل كان كبيرا، حيث فاجأتهم بهجومات في بداية 1906 لوضع حد لعملياتهم التي كانت تتعرض لمراكز وقوافل القوات الفرنسية.[12]

كان الشيخ بوعمامة، أثناء إقامته بدلدول، على اتصال بزعماء الطريقة السنوسية في إقليم تيديكلت بجنوب توات، وبخاصة بعاصمة الإقليم عين صالح وشيخها الحاج المهدي باجودة، الذي كان له دورا هاما في تشجيع الشيخ بوعمامة على مواصلة الجهاد، ودعوته مختلف القبائل لمساندته ودعمه ماديا ومعنويا، لما لا وهو أحد أقطاب المقاومة في الإقليم للاحتلال الفرنسي لتوات كما سنرى.

ثانيا:بدايات الاحتلال الفرنسي للجنوب الغربي ورد الفعل المحلي:

لما رأت فرنسا أن أقصى الجنوب الغربي للجزائر أصبح حاضنة للمقاومة الجزائرية، بل وربط مصيره بمصير المقاومات الشعبية في الشمال، وأصبح يشكل خطرا على الوجود الفرنسي ليس في الجزائر فحسب، بل وفي شمال إفريقيا برمتها، عندما أصبح سكان توات أنفسهم، يشاركون من لجأ إليهم القتال، كثفت من رحلاتها، في محاولة لاستمالة السكان سياسيا، وأوكلت المهمة للطبيب في الجيش الفرنسي الألماني الأصل جيرهارد رولف (Gerhard Rolfs)، الذي وبعد زيارته للإقليم سنة

1864، اقترح على السلطات الاستعمارية بالجزائر أن تقوم بنقل حدودها إلى أقصى وادي الساورة، أي إلى منطقة توات، باعتبار الأخيرة تشكل مركز المشاكل والمتاعب والفوضى ضد فرنسا، في جنوب مقاطعة وهران.[13]

جاءت الفرصة السانحة لفرنسا بعد توقيعها لمعاهدة مع انجلترا في 5 أوث 1890 أطلقت خلالها الأخيرة يد فرنسا في الصحراء الكبرى، وبذلك وضع المشروع قيد التنفيذ، حيث كلف الضابط دي بورتي (Deporter) بوضع دراسة شاملة ذات مضامين جغرافية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية لإقليم توات تمهيدا لغزوه.[14]

زودت البعثات الاستطلاعية، العلمية منها والعسكرية، المشروع الاستعماري بالبحوث والتقارير المفصلة عن الأوضاع العامة للصحراء الجزائرية، كما زودت العسكريين بمختلف الخرائط الجغرافية والطبوغرافية للمنطقة. وما أشرف القرن 19م على نهايته حتى كانت فرنسا قد أتمت استعداداتها السياسية والعسكرية، الداخلية منها والخارجية، للقيام بعمل عسكري حاسم، يضع حدا للتردد الذي طبع السياسة الفرنسية في أقصى الجنوب الغربي للصحراء الكبرى، ويتوج عمل نصف قرن من الجهود المضنية، التي تحملها عسكريون وجيولوجيون ومستكشفون فرنسيون وأوروبيون على حد سواء، ما دامت المصلحة واحدة.

كانت فرنسا تنتظر الرجل السياسي المحنك، الذي سيضع مشروعاتها قيد التنفيذ، ويحولها من مجرد تقارير وتوصيات على الورق، إلى طوابير وحملات على أرض الواقع، وكان ذلك الرجل هو الوالي العام الفرنسي للجزائر لافرير (lafferrire)، الذي وصل إلى قمة هرم السلطة الاستعمارية في الجزائر، حيث أصبح الحاكم العام للولاية سنة 1898، وهو المعروف بحماسه الزائد للتوسع الفرنسي في الصحراء.

كانت فرنسا تعرف مدى الخطورة التي ستتعرض لها قواتها إذا ما قامت بعمل عسكري كبير، ووجهت جيشا عسكريا لاحتلال المنطقة الصعبة والوعرة، وما لمسته في العقود السابقة من روح المقاومة لدا السكان المحليين، عندما وجهت حملات

استكشافية وعلمية للمنطقة، وانتهت في معظمها بانتكاسات دفع ثمنها قادة تلك الحملات أنفسهم، كما رأينا في العنصر السابق.

وتفاديا لذلك فقد عملت فرنسا هذه المرة على تكثيف الجانب العسكري في البعثات العلمية وتجهيزها تجهيزا عاليا ورفع عدد أفرادها، كما لعبت على عنصر المباغتة وذلك بجعل مقدمة الحملة تبدوا وكأنها حملة علمية، وأوكلت مقدمتها للسيد فلامون (G.B.Flamend) الموظف بقسم الجيولوجيا بالمدرسة العليا للعلوم بالجزائر العاصمة.

وصلت الحملة إلى إقليم تيديكلت في ديسمبر 1898، وبذلك كانت فاتحة عهد جديد لفرنسا في أقصى الجنوب الغربي للجزائر، حيث سترسل فرنسا طوابير عسكرية على إقليم تيجورارين في 26 جانفي 1900م، ثم إقليم توات الوسطى في شهر جويلية 1900، مما سيؤدي إلى قلب أوضاع المنطقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، رأسا على عقب ما يزيد عن نصف قرن.

1- الاحتلال الفرنسي لمنطقة تيديكلت:

بدأ الزحف الفرنسي على مقاطعة تيديكلت في وقت مبكر، بعد أن أقامت قواتها ببرج مريبال (maribel) سنة 1883م بين عين صالح والمنيعة، على بعد 140 كلم عن هذه الأخيرة من الناحية الجنوبية الغربية. كما أرسلت بعثات تجسسية عديدة، منها البعثة التي تكونت من خمسة أفراد، وعلى رأسها قائد عسكري، دخلت قصر العرب، وقد صادف دخولها وليمة عرس فاتجهوا إليه، متنكرين بأزياء شعبية، فألقي عليهم القبض، ثم تم فداءهم بأسرى من عين صالح، كانوا عند قائد القوات الفرنسية بغرداية. ولتحذير الفرنسين، أرسل الشيخ المهدي باجودة رسالة إنذار للفرنسيين يحذرهم فيها من مغبة الاستمرار في مثل هذه الأعمال.[15]

زادت هذه الحادثة في تأزيم الأمور بين الطرفين بسرعة، خاصة وأن المهدي ووالده الحاج عبد القادر باجودة كانا قد رفضا السماح للبعثات الاستكشافية

الفرنسية بالمرور في أراضيهم، لإدراكهم خطورتها وغرضها التجسسي. كما أن قبائل التوارق في المنطقة كانوا يقتلون أي شخص يشتبه في أنه على صلة بتلك البعثات.

حاولت القيادة العسكرية الفرنسية إخضاع المنطقة سلميا عن طريق الترغيب، فأرسلت أحد عملائها العرب وهو السيد محمد بن الطيب مقدم الطريقة القادرية بورقلة سنة 1896 لاستمالة الحاج المهدي باجودة، هذا الأخير رفض مجرد التعامل معه وقام بطرده،[16] عندها بدأت سياسة الترهيب لإخضاع المنطقة.

أصبحت مسألة احتلال أقصى الجنوب الغربي الجزائري أمرا استراتيجيا لفرنسا، وأصبح الإشراف عليها بيد لافرير (Lafferrire) نفسه، حيث أمرا بتشكيل حملة فلامون (G.B.Flamend) التي كانت مهمتها ظاهريا استكشاف طبوغرافية هضبة تادميت،[17] ولكنها سريا كانت تجر وراءها طابورا عسكريا، مهمته احتلال المناطق الجنوبية لتوات والمعروفة بمنطقة تيديكلت كخطوة أولى.

إلاّ أن المتتبع لخط سير الحملة يلاحظ أنها لم تعبر هضبة تادميت، أي حسب الهدف المصرح به، وإنما انطلقت من ورقلة إلى المنيعة، ومنها انعطفت بمحاذاة الحدود الشرقية للهضبة، لتصل قصر إقسطن أولى قصور تيديكلت من ناحية الشرق، ومنها مباشرة إلى عين صالح عاصمة الإقليم.

انطلقت الحملة يوم 28 نوفمبر1899م، ووضعت تحت قيادة النقيب بان (Pein) رئيس المكتب العربي بورقلة، ومعه فرقة القومية[18] المكونة من القبائل العربية بقيادة محمد بن الطيب، نائب مقدم الطريقة القادرية بالمدينة، وكان مجموع قواتها مائة وثلاثون (130) مهاريا،[19] وخمسة عشر (15) فارسا، مدعمين بفرقة الصبايحية بقيادة النقيب جيرمان (Germain)، مهمتها الدعم اللوجيستي، وحماية مؤخرة الحملة والتدخل إذا لزم الأمر، حيث بلغ مجموع هذه القوات حوالي سبعمائة (700) جندي.

– معركة إقسطن 28 ديسمبر1899م:

واصلت حملة النقيب بان (Pein) السير على طول الحدود الشرقية لهضبة تادمايت إلى أن وصلت إلى المنعطف الجنوبي حيث التفت على الحدود الجنوبية للإقليم، وبذلك عسكرت بمنطقة الشبابة في 27 ديسمبر1899، ثم تقدمت باتجاه القصر، واتخذت من فقارة الحاج عبد القادر بجوار القصر مقرا لها.

ولاستطلاع الأوضاع ومعرفة حجم الاستعدادات، بعث بان برسالة إلى الحاج المهدي يطلب منه تسهيل عبور أربعون فرنسيا من بعثة فلامون، لكن مجلس الأعيان رفض هذا الطلب،[20] واعتبره تحديا ومطلبا استفزازيا، فرد الفرنسيون بإطلاق النار الكثيف في الهواء لإرهاب السكان.

في هذه الأثناء كانت أخبار الطابور خلف بعثة فلامون، تصل سكان المنطقة الذين بدأوا استعداداتهم، وتجمعوا من مختلف قصور المنطقة، كقصر أولاد دحان وأولاد ماحي وحاسي لحجر والساهلة الفوقانية والتحتانية وفقارة الزوا والبركة، حتى وصل عددهم ألفي (2000) مقاتل تحت قيادة الحاج مهدي باجودة، شيخ قبيلة أولاد باجودة، فخطب في الناس ودعا إلى الجهاد، وأثار فيهم النخوة، ودعاهم إلى تأديب الحملة، وذكرهم بأمجادهم، وبما فعلوه ببعثة فلاترز (Flatters) سابقا.

انطلقت المعركة صبيحة اليوم الثامن والعشرين من شهر ديسمبر، على الساعة السابعة صباحا، وقد أبلى السكان بلاء حسنا، تقدموا نحو الفرنسيين المتحصنين بالكثبان تحت أصوات التهليل والتكبير،[21] حيث كانت الخطة هي الاقتراب نحو العدو وكأنهم يريدون الصلح لتفعيل استخدام البنادق والسيوف، وبالفعل انطلت الحيلة لولا أنه حدث ما عجل بنشوب المعركة قبل إتمام الخطة، حيث كان بينهم رجل يدعى قوفة لم يتمالك نفسه حين رأى المحتلين فصاح في المجاهدين "جنود الروم تتقدم نحونا"، وفجأة لمست أصابعه زناد بندقية "الشفر" التي كانت بيده، فخرجت الطلقة (لعمارة) سميت "بعمارة قوفة".

استخدم المجاهدون كل الوسائل التي وقعت عليها أيديهم، لكن استخدام العدو لسلاح المدفعية، ومقتل زعيم المقاومة الحاج مهدي الوضع سوءا، فخارت القوى، وانهارت المقاومة عند الساعة العاشرة من صبيحة اليوم نفسه، بعد أن تكبد المجاهدون خسائر كبير، إذ عد ستة وخمسون(56) مجاهدا في عداد الشهداء، منهم قائد المقاومة الشيخ المهدي وابنه وأخوه بوعمامة،[22] والحاج أبابه زعيم أولاد عزي، وديدي محمد العربي ومحمد الدهانا، ومائة وخمسون (150) جريحا، وتسعة وأربعون (49) أسيرا وقيل أربعة وستون (64)، منهم أحدى عشر أسيرا من كبار أعيان القبائل منهم الشيخ بكاتي باجودة.[23] في حين لم تتعد خسائر العدو قتيلا واحدا، وأربعة عشر(14) جريحا، حسب المصادر الفرنسية التي تسعى دائما للتقليل من خسائرها، في مقابل تضخيم خسائر المجاهدين، للنيل من الجانب السيكولوجي لدى السكان ودفعهم إلى الاستسلام.

وكما هي عادة قوات الاحتلال، لم يفوت رجاله فرصة العقاب الجماعي، حيث أستبيح القصر بما فيه، وصودرت ثروته الحيوانية التي بلغت تسعة وتسعين (99) جملا، وهي معاش السكان، ووسيلتهم الوحيدة للنقل.

– احتلال عين صالح 30 ديسمبر1899م:

اقتضت إستراتيجية المجابهة، تجمع حاميات القصور المجاورة للدفاع عن إقسطن، لكون أن مواجهة كل قصر بمفرده للفرنسيين فرادى صعب، خاصة وأن السكان كانوا يدركون اختلال التوازن في التسليح بين الطرفين، كما أن إقسطن يعتبر بوابة عاصمة الإقليم واحة عين صالح، ولذلك عقدت الآمال على هذه المعركة، لأن دحر قوة المعتدي، كما اعتقد السكان، ستجبره على العودة من حيث أتى والعكس صحيح.

بعد الهزيمة التي لحقت بالمقاومة في إقسطن، أصبح الطريق إلى واحة عين صالح تحصيل حاصل، ولما كانت معظم القصور الصغيرة المحيطة قد شاركت في القتال في المعركة السابقة، فقد أصبحت بلا غطاء يحميها، وهذا خطأ كبير لأن الإستراتيجية

العسكرية تقتضي ترك حامية في قصر، مما مكن العدو من دخول عين صالح في اليوم الموالي دون مقاومة تذكر.[24]

وبسقوطها وضع الاستعمار الفرنسي يده على عاصمة مناطق الجزء الجنوبي من إقليم توات، ذات البعد الاستراتيجي والاقتصادي، فهي مركز عبور تجارة الشمال وإفريقيا جنوب الصحراء، وملتقى الطرق التجارية التي تربط شمال إفريقيا بالسودان الغربي، كما أن عين صالح ذاتها سوق كبيرة، ومركز تموين مهم لكافة سكان وسط الصحراء الكبرى، وبسيطرته عليها يكون قد وضع قدمه الأولى في إقليم توات الكبرى، حيث سيتمكن من السيطرة على بقية مناطق توات الجنوبية و الوسطى.

فرض العدو على سكان واحة عين صالح دفع غرامة تعادل عشرة(10) آلاف فرنك فرنسي قديم، جمعت خلال يوميين، وقسمت على فرق القومية والصبايحية التي لعبت الدور الأكبر في دخول واحتلال المدينة، كما فرض عليهم المساهمة في إقامة تحصينات للقوات الفرنسية في قصبة باجودة، التي اتخذ منها العدو مركزا لقواته وسجنا للأسرى، وطالب السكان المحليين بتقديم مبالغ مالية لفدائهم، وأجبر البعض على إخلاء سكناته لصالح ضباط الجيش.

– معركة الدغامشة 5 جانفي 1900م:

لم تكن الهزائم التي لحقت المجاهدين لتفت عضدهم، فغريزة الدفاع عن النفس قد جبلت عليها النفس البشرية، ولذلك فإن المقاومين المنسحبين من المعارك السابقة قد تجمعوا قرب قصر الدغامشة بالمكان المسمى "البركة" على بعد 5كم جنوب عين صالح، استعدادا لمواجهة زحف الأعداء، وقد بلغ عددهم ثمانمائة (800) مجاهد، من مختلف قصور أقبلي وتيط وإينغر وعين صالح والهبلة رقان وأولف، وجعلوا القيادة بيد عبد الله الرقاني.

وفي أثناء تدارس الخطة، اتفق الجميع على مباغتة الحامية الفرنسية في قصبة باجودة، لكن العدو علم بما يحضر عن طريق جواسيسه، فانسحب وتموقع في الدغامشة خلف الكثبان القريبة، بعد أن درس المكان واتخذ الوضعية المناسبة. أما

المجاهدون الذين انطلقوا كرجل واحد صبيحة يوم الخامس من جانفي1900، فقد تفاجئوا بقوات العدو أمامهم، قبل أن يصلوا إلى القصر، حيث كانت تراقبهم عن كثب، حتى إذا توسط المجاهدون مكانا مكشوفا دون غطاء طبيعي، باغتتهم النيران من كل صوب ما جعلهم فريسة لبنادق العدو.[25] وأمام اشتداد ضربات العدو وكثافة نيرانه وتزايد أعداد القتلى والجرحى، وعدم قدرة المجاهدين على اختراق الكثبان العالية للوصول إلى العدو، اضطر للانسحاب، وإعادة تنظيم خطوط الدفاع، ثم تواصل القتال مجددا طيلة النهار، لكن دون جدوى حيث انكسر المجاهدون بعد أن فقدوا مائة وخمسون (150) شهيدا، بينهم قائدهم عبد الله الرقاني وأربعمائة (400) جريح،[26] ولم تشر المصادر إلى الخسائر في صفوف العدو.

إن ضعف التكوين الحربي للمجاهدين، كان سببا في الهزيمة التي لحقت بهم، فقد اختلفوا بداية في توقيت شن الهجوم، هل يكون ليلا أو نهارا، كما أن معركة الدغامشة تمت في أرض مكشوفة، وبدون غطاء عسكري ولا طبيعي، مما سهل على العدو اقتناص المقاتلين، خاصة وأنه كان يفوقهم في كثافة النيران، ومن ثم كان من الخطأ الاستراتيجي مجابهة العدو في ظروف كهذه، وكان الأولى مهاجمته ليلا، أو تحصين القصر والدفاع عنه، وخوض معارك داخل البيوت والممرات، أو استدراج العدو إلى منطقة تساعد طبوغرافيتها على مثل هذه المواجهات، الغير متكافئة في نوعية العدة والعدد، وهذا ما ستتداركه المقاومة لاحقا كما سنرى في ملحمة إينغر.

– ملحمة إينغر 19 مارس 1900م:

استفادت المقاومة إستراتيجيا من بعض الأخطاء السابقة، فنوعت في طريقة قتالها للقوات الفرنسية الزاحفة، بين المجابهة والاستدراج وحرب الأزقة وإقامة التحصينات، فكانت خسائر العدو كبيرة، مما خلق من هذه المعركة ملحة، تناقلتها أفواه وأقلام التواتيين من تيميمون إلى أقبلي.

بعد النجاحات التي حققتها حملة بان (Pein) في واحة عين صالح وما جاورها، أصدر الوالي العام بالجزائر تعليمته إلى الرائد بوماكارتان-BouMac)

(Artin، لإتمام احتلال قصور وواحات تيديكلت، هذا الأخير الذي كلف بدوره الملازم كلوستر (Clauster) بالتوغل نحو إينغر، التي تعتبر الضمان الوحيد لاستمرار الفرنسيين في عين صالح، والتي لا تبعد عنها سوى ستين (60) كلم.

لكن الحملة التي كانت تتكون من مائة وخمسون (150) جنديا، ومثلهم من القومية، لم تحقق مبتغاها، حيث استمر القتال طيلة ليلة 24 جانفي إلى عشية يوم 25 من نفس الشهر دون جدوى، فتراجعت إلى عين صالح، في انتظار المدد. في الوقت نفسه حاول الاحتلال النيل من صفوف المجاهدين، وشق الصف بأن بعث إلى كافة سكان توات بأقاليمها، يدعوهم فيها إلى تسليم السلاح، وفتح القصور أمام الطوابير الفرنسية، وذلك في رسالة مؤرخة يوم 31 جانفي1900،[27] لكن رد السكان الوقوف صفا لصد التقدم الاستعماري.

عاود العدو إرسال حملة بقيادة أو (Eu) لكن دون أن تتمكن من تحقيق أهدافها، عندها عرف السكان أن فرنسا لن تسكت وستنتقم، وأدركوا أن هذا التراجع تكتيكي لانتظار المدد، فباشروا استعداداتهم، بتحضير البارود وتقطيع الرصاص وجمع القوات والعتاد، وأرسلوا يستنجدون بسكان مختلف القصور التي لبت النداء، وجاءت من رقان وسالي وتيمي واينغر وتيط وأقبلي وأولف، بل وصلت الإمدادات من أقصى شمال توات من الهبلة وتسابيت وتيميمون ليصل عددهم نحو ألفا وثلاثمائة (1300) مجاهد، زحفوا نحو منطقة إينغر يوم 14 فيفري 1900 يقودهم عزي الحاج محمد.

جهزت فرنسا حملة ثانية يوم 14 مارس، بما لم يسبق له مثيل، حيث وصل عدد أفرادها إلى أكثر من ألفي (2000) مقاتل ما بين مهاري وفارس وجندي ومدفعي، وفرق الدعم و الإمداد والتموين والقومية والصبايحية، مجهزين بأكثر من سبعمائة 700 بندقية و مائة وخمسون 150 سيفا ومدفعين بقيادة العقيد دولوك، وهي المرة الأولى التي تعتمد فيها فرنسا على القوة العددية. والتقى الجمعان يوم 18 مارس قرب عين تارقة التي تبعد أربعة عشر (14) كلم شرق إينغر، وأمام كثافة نيران

العدو أجبر المجاهدون على الانسحاب وتغيير خطتهم، بما يسمح لهم الاحتماء وراء الكثبان الرملية وبساتين النخيل.

وهناك على مشارف قصر إينغر دار قتال شرس صبيحة يوم 19 مارس1900، حيث تحصنت الجموع في القصبتين الموجودتين بإنغر، وهما قصبة أولاد حادقة وقصبة أولاد جلول، كما أقاموا خطين دفاعيين الأول عند مدخل الواحة، و الثاني عند الفقارات،[28] مركزين دفاعاتهم على الجهة الشرقية أما القائد بومقارتن (Bou Mac Artin) فقد رسم خطته على نحو يتم فيه تكثيف النيران القوية على الجهة الشرقية لإلهاء المدافعين، بينما أرسل فرقة المهارية إلى الجهة الغربية الضعيفة التحصين لتقوم بعملية الصعود إلى الكثبان وتنصيب المدافع باتجاه القصبتين، وبالفعل نجحت خطته ودكت الأسوار، وتمكنت من فتح ثغرات بها، وكان السكان يقومون ببناء ما تهدم ليلا، ما دفع بالعدو إلى تركيز مدفعيته على قصبة أولاد أحمد بن جلول لفتح ثغرات واسعة بها تمكنه من الاقتحام قبل الليل، حتى لا يجد السكان فرصة لإعادة بناء ما تحطم، وتقدمت قوات العدو نحو الداخل، فلقيت مقاومة عند المسجد والبساتين المجاورة للقصر، ثم ركزت قصفها على القصبة الثانية، لكنها لم تتمكن من تحقيق هدفها حتى جعلت من المنطقة سحابة دخان، وتكبدت خسائر فادحة، ثم انتقل القتال إلى شرفات المنازل و الممرات الضيقة.

لقد انتهت ملحمة إينغر التي برهن فيها الإنسان الجزائري على الصمود والتضحية إلى آخر رمق من حياته، رغم المجزرة التي ارتكبتها القوات الفرنسية، والتي ذهب ضحيتها أكثر من خمسمائة (500) قتيل، معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال، كما تم حشد الأسرى في منطقة عالية تحت حراسة مشددة لعدة أيام، ثم أطلق سراح الأطفال والنساء والشيوخ، ورحل مائة واثنان وستون (162) أسيرا، بعضهم إلى عين صالح ونقل آخرون إلى المنيعة. أم العدو فقد تكبد خسائر هي الأثقل منذ وطئت قدمه توات، حيث أحصي في صفوفه أحدى أربعة وأربعون(44) جريحا، وأحدى عشر (11) قتيلا حسب المصادر الأجنبية، أو ثمانون(80) قتيلا

حسب المصادر المحلية،[29] دفنوا هناك بالقرب من إينغر حتى سنة 1968 حيث تم نقل رفاتهم إلى فرنسا.

تقدمت الحملة الفرنسية فسقطت تيط يوم 23 مارس1900، وأقبلي يوم25 مارس من نفس السنة، فأولف، وبذلك تمكن الفرنسيون من معظم وأهم واحات وقصور تيديكلت، وهو ما سيسهل انعطاف القوات الفرنسية باتجاه الشمال للالتفاف والسيطرة على توات الوسطى.

2- الاحتلال الفرنسي لمنطقة تيجورارين:

بعد أن أتمت فرنسا سيطرتها على الجزء الجنوبي من إقليم توات وعاصمته عين صالح، وجهت أنظارها باتجاه الجزء الشمالي وعاصمته تيميمون. وبحكم أن نقطة الارتكاز للقوات الفرنسية في أعماق الجزء الغربي للصحراء هي مدينة المنيعة، التي تقع على مشارف توات من جهة الشمال الشرقي، فقد بدأ الزحف في هذه الحملة منها كذلك.

_معركة فاتيس أفريل-ماي 1900م:

اجتمع ما يقارب الثمانمائة (800) جندي في المنيعة، تحت قيادة العقيد مينسترال (Menestrel)، إضافة إلى قطعتين من سلاح المدفعية، هذا السلاح الذي أثبت نجاعته وكان الفيصل في كل المعارك التي جرت في الجنوب الغربي الجزائري، ونزلت قرب قصر فاتيس في مكان يدعى تغنطاست يوم 11 ماي 1900م، مع ذلك فشلت حملته فشلا ذريعا، أمام مقاومة الاستنزاف التي تعرضت لها على طول الطريق الممتد بين المنيعة وتيميمون، حيث شن عليها سكان القصور هجمات عطلت من تحركها، ما يدل على محاولة الاستفادة من المقاومة التي تمت في جنوب الإقليم قبل ذلك.

اضطرت الحملة إلى طلب المزيد من القوات لمواجهة فشلها، فوصلتها قوات الاحتياط من منطقة البيض الواقعة إلى شمال الإقليم قوامها أربعمائة (400) جندي، عبرت العرق الغربي الكبير، والتقت القوتان قرب فاتيس يوم 20 ماي، واستعد

السكان لمواجهة هذا الزحف فتحصنوا بقصبة فاتيس يقودهم القائد عبد الكريم، لكن العدو تمكن من الانتصار فاقتحم فاتيس ثم تمكن من دخول تيميمون يوم 26 ماي 1900م، بعد مقاومة عنيفة استمرت شهرين تقريبا، تحطمت على أسوار قصورها أحلام القائد الفرنسي الذي كان يظن أن الأمر لا يستغرق أكثر من يوم واحد.

_معركة لمطارفة 30 أوت 1900م:

بعد احتلال تيميمون، تساقطت بقية القصور تبعا، فانتقلت قوات العدو بقيادة بان وفالكونتي (Valconatti) [30] قائدا ملحقة تيميمون، وبمساندة قوات الدعم بقيادة لوتيل(Letuelle) بين قصور القبائل الزناتية فسقطت تاغنطاس وتينيركوك إضافة إلى قصر الزوا و دلدول، لكنها اصطدمت بمقاومة كبيرة عند لمطارفة التي رفضت الاستسلام، فدارت معركة كبيرة بين الطرفين على مشارف القصر من الناحية الشرقية، استبسل فيها المجاهدون، وأبلوا بلاء حسنا، أجبرت الفرنسيين على الانسحاب إلى قصر دلدول، تاركين وراءهم قتلاهم وجرحاهم وجمالهم وذخيرتهم التي غنمها المجاهدون.

تراجعت قوات فالكونتي في انتظار الإمدادات العسكرية من حامية تيميمون.[31] التي أرسلت تشكيلة مدفعية جديدة وخمسون جنديا، لتنظم إلى الفرقتين الموجودتان بتيميمون والتي تعدادها مائة وعشرون 120 جنديا. وأجبر الفرنسيون الأهالي على عدم التجول طيلة أيام الأول والثاني والثالث من سبتمبر، ثم تجددت المعارك يوم 5 سبتمبر 1900، فلجأ المجاهدون إلى الاحتماء بالكثبان لتعطيل مفعول تقدم القوات الفرنسية، كما تم إخلاء القصر من ساكنيه، لتقليل الخسائر البشرية من القتلى والجرحى، الناجم عن ضرب المدفعية، ومن ثم المحافظة على روح المقاومة بأقل التكاليف. وبهذا النفس الجديد خاض الجميع معركة حامية الوطيس، انتهت بانتصار الجزائريين ودحر العدو عند أسوار القصر، حيث انسحب مخلفا وراءه عشرات القتلى والجرحى، وقيل ثلاثة عشر عسكريا وستة وثلاثون جريحا حسب مصادر العدو، منهم أحمد بن عدة قائد فيلق العرب القومية، والنقيب جاك، بينما استشهد ثمانية و جرح

إثنان . واضطر القائد الفرنسي في تيميمون إلى عقد معاهدة صلح ضمنت للسكان عدم تدخل فرنسا في شؤونهم الداخلية بالإضافة إلى إعفائهم من دفع الضرائب والأقوات وتجنيد شبابهم في صفوف الجيش الفرنسي، و كدا إعفائهم من الخدمة المجانية السخرة.

أسقطت معركة لمطارفة أسطورة المدفعية الفرنسية، التي خدع بها الفرنسيون التواتين في البداية، وإذ يذهب المؤرخ العسكري غوتي(Gautier) إلى أن الانتصار مرده أسباب دينية وأخرى جغرافية متعلقة بطبوغرافية الأرض والمناخ،[32] إلا أنه يغفل روح النضال المتقدة في هذا الشعب ضد الدخيل الأجنبي منذ القديم، والتي مكنت المقاومين أحيانا، من إيجاد الخطط البديلة الكفيلة بتعطيل هذا السلاح، وبأقل الوسائل وأبسطها.

3- الاحتلال الفرنسي لمنطقة توات الوسطى:

كانت إستراتيجية الغزو الاستعماري في توات تقتضي إنجاز ثلاث مهمات بثلاث حملات من جهتين مختلفتين، على أن تكون المنيعة نقطة الانطلاق في الحملتين الأوليتين. فالحملة الأولى كانت وجهتها مقاطعة تيديكلت الواقعة في جنوب توات، والحملة الثانية كانت وجهتها تيجورارين الواقعة في شمال توات، على أن تكون المهمة الثالثة تحصيل حاصل لما سبق، أي أن تزحف القوات المتمركزة في الجنوب والأخرى الموجودة في الشمال باتجاه وسط توات وعاصمته تمنطيط.

لقد تم وضع هذه المنطقة بين فكي كماشة، لإتمام عملية الغزو بأقصى الجنوب الغربي الجزائري، ففي الشهور الأخيرة من سنة 1900 تجمعت قوات العدو في مدينة المنيعة لتكوين طابور جديد، ثم زحفت نحو تيميمون بالشمال، حيث وصلتها يوم 26 جانفي 1901م، وقد تجاوز قوامها ثمانمائة (800) جندي، وأربعة مدافع بقيادة الجنرال سيرفيار(Servieres). بينما انطلقت قوة أخرى من تيديكلت بالجنوب، مكونة من ثلاثمائة (300) جندي،[33] على أن تلتقي القوتان عند بلدة تيمي على بعد كيلومترات من تمنطيط، و أمام هذه القوة الضاربة لم يتمكن السكان

من كسرها، وبذلك تمكن الغزاة من دخول مدنها وواحاتها منها مدينة أدرار يوم 10 فيفري 1901م.

لجأ أعيان وشيوخ الجنوب الغربي الجزائري، بسبب سقوط سلطة الداي في الجزائر سنة 1830، وبعد تونس جغرافيا، إلى طلب مساعدة السلطان العلوي المغربي، باعتباره آنذاك السلطة الباقية في شمال إفريقية، والقريبة منهم جغرافيا للوقوف في وجه الزحف الفرنسي، خاصة وأنهم لمسوا المساعدات التي قدمها قبل ذلك لمقاومة الأمير عبد القادر و الشيخ بوعمامة، حيث شكل التراب المغربي مصدر السلاح، والملاذ الآمن وقت اشتداد الغزو والحصار، إلى أن المغرب هذه المرة، لم يحرك ساكنا، بسب معاهدة لالة مغنية التي رسمت الحدود بينه وبين فرنسا سنة 1845، وكبلت يداه عن أي عمل خارج حدوده الرسمية،.

وبذلك لم يجد سكان الصحراء سلطة مركزية في الداخل تدافع عنهم، ولا جيران الخارج يمدون لهم يد المساعدة لمواجهة الحملات الفرنسية المجهزة بأحدث وسائل القتال المعروفة آنذاك، فما كان أمامهم سوى المجابهة بأبسط الوسائل، والتضحية بالنفس، ومواصلة مقاومة الاستعمار بالوسائل المتاحة السياسية والثقافية والعسكرية، والتي لم تتوقف يوما، وهذا ما سنتناوله بالبحث لاحقا.

أما فرنسا نفسها، فلم تصدق ما حدث، ولم تكن تتصور مثل هذا الإنجاز الكبير، وعلى مساحة شاسعة، وفي ظرف قياسي وجيز، وبخسائر لا تكاد تذكر، وعلى منطقة عدت مقبرة للبعثات الاستطلاعية. ولذلك فقد عمت الفرحة و البهجة بيوت الفرنسيين، واعتبر ذلك احتفالا بالنصر وانتقاما لبعثة فلاترز Flatters) . كما توالت برقيات التهنئة إلى الحاكم العام لافرير (Lafferrire)، الذي تم الإنجاز في عهده وبأمره، كما كرم فلامون (G.B.Flamend) والنقيب بان (Pein) اللذين قادا عمليات الجيش الفرنسي بأوسمة الشرف على مجهوداهما العظيم تجاه الجمهورية.

وهكذا أحكمت فرنسا سيطرتها على الإقليم، وبدأت مرحلة جديدة في إخضاعها للبقية الباقية من الصحراء الجزائرية، حيث أدخلتها ضمن إستراتيجيتها العسكرية، واتخذت منها قاعدة لإخضاع الأراضي الواقعة غرب توات، حيث تمكنت منها سنة 1901م، ولإخضاع مناطق توارق الأهقار شرقا ومناطق توارق الأدرار جنوبا وتم لها ذلك سنة 1902م. وبذلك استكمل المشروع الاستعماري خطته في كامل التراب الوطني ليبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة إنشاء المشاريع الاستغلالية لنهب ثروات البلاد.

4- أسباب انتكاس المقاومة في وجه الزحف الفرنسي:

بعد استعراضنا للزحف الفرنسي على منطقة الجنوب الغربي الجزائري بين سنتي 1899-1901م، وعجز المقاومة المحلية على وقف هذا الزحف رغم ما أظهرته من رغبة في التضحية، وتكاثف في الجهد المقاوم بين مختلف القبائل والمناطق فإننا سنقف عند مختلف أسباب هذا القصور، والتي نجملها في:

-غياب سلطة مركزية في البلاد تشرف على تنظيم المقاومة، وتشتت الولاءت في المنطقة والتي يغلب عليها الطابع المشيخي الطرقي وتداخل مصالح الطرق الصوفية وتعددها مما خلق جوا من المنافسة أحيانا شكل مدخلا لجواسيس العدو لنشر الفرقة، و سهل عليه الانفراد بالقصور الواحد تلوى الآخر، ومع أن مشاركة السكان في المقاومة كانت جماعية، إلا ناذرا، إلا أن بعض القصور استسلمت دون مقاومة، كما أن الخطر الخارجي وحد بعض الصفوف التي كانت متفرقة حيث ذابت الخلافات وتوحدت الصفوف تحت بعض الزعامات الدينية مثلما حدث بين مقدم الطريقة السنوسية في عين صالح الحاج المهدي باجودة ومقدم الطريقة الشيخية بأولف مولاي عبد الله بن العباس الرقاني[34]، فإن بعض الزعامات الأخرى لم تتخذ من ذلك نموذجا لتوحيد المقاومة بين مختلف المناطق تحت قيادة واحدة، حيث لاحظنا أن كثيرا ما كانت القصور تنتظر وصول العدو إليها وتقاتله تحت قيادة محلية، مما سهل عليه الانفراد بها تباعا.

-قدرة العدو على الحركة في منطقة شاسعة يتمركز سكانها في بقع صغيرة تعرف بالواحات، مما مكن العدو من التنقل بحرية، والتراجع حين اللزوم وإعادة تنظيم الصفوف وانتظار المدد، وإعادة الكرة مرات حتى السيطرة على المناطق.

-الطابع التضاريسي للمنطقة الشاسع والمكشوف طبيعيا، والأقرب إلى المعارك الكلاسيكية للجيوش الكبيرة العدد، ولم يكن مساعدا لمثل هذه المقاومة القليلة العدد والعدة، والتي تعتمد ما نسميه اليوم بحرب العصابات.

-اختلال موازين القوى بين الطرفين، ففي الوقت الذي اعتمد فيه الجزائريون على الفارق العددي في الجنود مقارنة بعدد جنود الحملات الفرنسية التي لم تتعدى الألفي جندي في أحسن الأحوال، فإن العدو لجأ لتغطية هذا العجز على قوة النيران التي كان يمتلكها والتي تنوعت بين بنادق متطورة ومسدسات دقيقة وقنابل عكس المقاومة التي لم يتعد تسليحها تشكيلة من البنادق القديمة وأسلحة هي من مخلفات العصور الوسطى كالسيوف والسلاح الأبيض والرماح، وحتى البنادق التي تعتبر أكثر أسلحتهم تطورا والتي تدعى ببنادق "الشفر" فهي قصيرة المدى وتعمل بالبارود وليس بالرصاص، ويتطلب استخدامها الاقتراب من العدو مما يجعل مستخدميها في خطر.[35]

-استخدام العدو لسلاح المدفعية، والذي كان فاصلا في كل المعارك، كما كان لسلاح الطيران القول الفصل في معارك الحرب العالمية الأولى، حيث لم يكن للسكان سابق عهد به، مما سهل عملية تفكيك الصفوف ودك القصور وإيجاد الثغرات في أسوار الحصون، وإلحاق الخسائر الكبيرة في الممتلكات والأنفس مما كان يخلف حالة من الذعر والفوضى خاصة في صفوف المدنيين العزل وهذا ما أثر على نفسية المجاهدين سلبا وقدرتهم على الاستمرار في القتال وهم يرون النساء والشيوخ والأطفال يموتون بالمئات.

-اعتماد الحملات الفرنسية على الفرق العربية الخاصة كفرقة القومية والصبايحية في اكتشاف المناطق والتجسس عليها، وجمع المعلومات العسكرية والاجتماعية والاقتصادية عنها مما سهل عليها وضع الخطط العسكرية التي سهلت عليها احتلال

المنطقة. فقد لجأت فرنسا منذ أن حلت بالصحراء إلى تجنيد العرب الهلاليين في الأطلس الصحراوي، خاصة أولاد نايل و أولاد سيدي الشيخ والشعانبة في صفوفها، وخلقت منهم طابورا خامسا سهل عليها احتلال الصحراء، وما كان لها أن تتمكن من اختراق مناطق التوارق إلا بمساعدة هذا الطابور. كما أن هذه الفرق لعبت الدور الكبير في عملية الغزو، وتقدمت القوات الفرنسية في المعارك، بحكم معرفتها واطلاعها على المناطق المختلفة ونقاط ضعفها، مما أثر سلبا على نفسية السكان، الذين كانوا يقاومون وهم يرون أن بضعا منهم يقفون إلى جانب العدو، وكما يقال فظلم ذوي القرابة أشد مرارة.

-بساطة التكوين العسكري لدى أفراد المقاومة الذين ينقصهم التحضير والتدريب الجيد على مختلف أساليب القتال اللهم روح التضحية والجهاد التي كانت تسري في دمائهم، فكثيرا ما كانوا يدخلون المعارك بدون خطط عسكرية للقتال وإنما كانوا يتدافعون بصدور عارية بدافع الحماس الديني الذي لا يصنع النصر بمفرده، دون تقدير قوة العدو. كما أننا لاحظنا غياب تكتيكات حروب العصابات من أمثال استدراج العدو إلى مناطق يختارونها، والالتفاف عليه، واستنزاف قواته منذ انطلاقه، وعدم ترك الحملة تأخذ أنفاسها، ونصب الكمائن وما شابه ذلك، وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى العزلة التي كانت تعيشها المنطقة، بسبب البعد عن مراكز وحواضر السياسة و التنافس العسكري الذي ميز شمال إفريقيا منذ العصور القديمة.

عدم معرفة السكان بالعدو الذي يجابهونه بسبب العزلة و القطيعة على الرغم من أنه لم يكن يبعد عنهم سوى بضعة مئات من الكيلومترات حيث كان يتحصن في المنيعة. عكس العدو الذي لم يتقدم حتى درس المنطقة وأوضاعها من خلال البعثات الاستكشافية والتجسسية التي كانت تنشط طول السنة.

ثالثا: استمرار المقاومة رغم الاحتلال:

بالرغم من اختلال ميزان القوى بين الطرفين الجزائري والفرنسي، المتصارعين في أقصى الجنوب الغربي، إلا أن المقاومة العسكرية للدخيل الأجنبي لم تتوقف، فكثيرا

ما كانت المواجهات تتجدد من حين لآخر، كما أن المقاومة في الإقليم قد ارتبطت مباشرة بمقاومة التوارق في الأهقار ومقاومة الجنوب الغربي في بشار .

1- معركة شروين 28 فيفري 1901م:

استمرت المقاومة في الجنوب الغربي ضد الوجود الفرنسي واستمرت معها هجمات المجاهدين، فقد تعرض الطابور الذي كان يقوده الجنرال سرفير (Servieres) [36]، في 20 فيفري 1901م في إقليم تيكورارين لهجومات عنيفة، كما هاجمت القبائل الزناتية والمحارزة والخنافسة المركز العسكري الفرنسي بتيميمون.

مع زيادة الهجمات التي تتعرض لها القوات الفرنسية في المنطقة أرسل الجنرال سرفير العقيد بان (Pein) في دورية استطلاعية تكون مقدمة للحملة التمشيطية التي يقودها الجنرال بنفسه ، وعند منطقة "ضاية المجاهد" فاجأ المقاتلون الطرف الفرنسي، و تم استدراج الفرقة الاستطلاعية الفرنسية إلى شروين، حيث تظاهر المجاهدون بالانسحاب ليلا، وانقسموا إلى مجموعتان قامت إحداها بالالتفاف على العدو من جهة عين عبو، والأخرى من جهة قصابي، وبذلك تم إحكام الحصار على العدو حيث دار قتال عنيف، حاولت من خلاله القوات الفرنسية فك الكمين الذي وقعت فيه، لكنها لم تتمكن إلا بعد أن خلفت وراءها خسائر بشرية ومادية كثيرة، ويكفي أن المجاهدون تمكنوا من إصابة العدو في عمقه، حيث قتلوا الضابط راميون (Ramillon)، ومحمد بن الطيب نائب الطريقة القادرية بورقلة الذي كان يقود فيلق العرب القومية، والذي لم يكن عسكريا مسلحا وكان وجوده معنويا في فيلق العرب.[37]

كما وقعت معركة تلمين في 8 ماي 1901م[38] في شمال منطقة تيكورارين وكان المجاهدون بقيادة محمد بن عبد الله الذي أسر بينما استشهد ثمانية من المجاهدين، ومقاومة سيدي زين العابدين في جنوب توات وقد أخذت على عاتقها تصفية الوجود الاستعماري، والوقوف في وجه الطابور الذي كان يقوده كولون بونييه (Colonne Bonnier)، ومعركة طلمين 7 ماي 1902م وكانت انتفاضة

على أعمال القوات الفرنسية في تيديكلت بجنوب توات وكانت بقيادة الشيخ عثمان، ومعركة الكوديا ديسمبر 1902م وكانت بقيادة الشيخ بن كراجي، ومعركتي حاسي لغزال وقد اندلعت المواجهات الأولى في أوث 1903م وقد تكبد العدو خسائر فادحة، حيث قتل في صفوفه ثمانية وعشرون جنديا، نقلوا بعد ذلك من تيكورارين إلى أدرار عاصمة المنطقة، حيث أقيمت لهم مراسيم رسمية، ودفنوا في المقبرة التي أنشأت رسميا لدفن النصارى في المنطقة.[39]

تمكنت فرنسا من وضع يدها على أقصى الجنوب الغربي للجزائر في الفترة الممتدة بين 1899-1903م، وعينت لابيرين (Laperine) على رأس القيادة العسكرية التي استحدثت بجنوب الجزائر عام 1902م.[40]

لقد تميزت سنوات ما بعد 1900م بإعادة تنظيم المناطق المحتلة حديثا، حتى يتسنى للسلطات الفرنسية ربط مناطق الجنوب الصحراوي بالجنوب الوهراني، كما لجأت لإقامة الثكنات العسكرية و الأبراج العسكرية لمراقبة المناطق التي احتلتها.

في سنة 1916م وبعد أن أعلن التوارق الثورة بقيادة الحاج حمود شيخ الأجار في منطقة توارق الأزجار نواحي جانت، انضمت إليه فلول المقاومات السابقة في الصحراء، إضافة إلى فرار بعض الأفراد الجزائريين من قبيلة الشعانبة المجندين في الفرق المهارية، وتمكن التوارق من الاستيلاء على كثير من المراكز العسكرية وقتل حاميتها، ومن ثم قررت فرنسا إنشاء القيادة المؤقتة لأقاليم الصحراء في 12جانفي1917م، ومنحتها مهام الدفاع والشرطة، ولقيادتها كامل الصلاحيات التي تراها ضرورية لإعادة الأمن والاستقرار بالمنطقة.[41]

استمرت مقاومات الصحراء تدك معاقل العدو إلى غاية نهاية 1918م، حيث هدأت مناطق الجنوب الجزائري وتمكنت القوات الفرنسية من التوغل فيها، والوصول إلى أعماق المناطق البعيدة فيها، وتقرر بسبب ذلك إلغاء القيادة المؤقتة لأقاليم الصحراء في 30 أكتوبر1919م.

لم تتوقف روح المقاومة في منطقة الجنوب، فما كادت تخبوا في منطقة حتى تثور منطقة أخرى، وبذلك ظلت حرب العصابات مستمرة، والكمائن مشتعلة من بشار إلى أدرار و الأهقار، وما إن حلت سنة 1927م، حتى اشتعلت الصحراء مجددا تحت أقدام الغزاة، وهذه المرة بقيادة الشيخ زين العابدين الكونتي، حيث لعبت أقاليم توات دور الوصل بين الجبهة الشرقية والغربية، وضمن هذه الانتفاضة تدخل معركة قصر باعمر بتوات سنة 1927م.[42]

لقد ظلت فكرة رفض التواجد الفرنسي راسخة في الأذهان، واتضحت فيما بعد من خلال النضال السياسي الذي شهده الجنوب الجزائري والذي توج بمشاركته في ثورة أنهت الوجود الاستعماري بالصحراء.

2- الفرقة المهارية بتوات:

حكمت فرنسا الصحراء باعتبارها إقليما عسكريا، ونظرا لصعوبة المنطقة، وحاجتها لمرشدين، فقد أصدرت قانون 5 ديسمبر 1894م، الذي رخص للحاكم العام بالجزائر إنشاء قوات خاصة من السكان المحليين للصحراء عرفت بعد ذلك بالمهارية.

اتبعت فرنسا في تجنيد هذه الفرق على سياسة الإغراء، وقد ركزت أهمية قصوى على هذه الفرق في التوغل في الصحراء، كما اعتمدت في ذلك على بعض الأفراد المجندين من قبائل الشعانبة والرقيبات.[43] فزحفت بواسطتهم في ربوع الصحراء الممتدة من ورقلة شرقا إلى توات غربا، ومن البيض والأغواط شمالا إلى حدود السودان الغربي جنوبا، وبذلك نجحت في التقدم، وتمكنت بواسطتهم من الزحف في أراضي توارق الأهقار، وتوارق الأزجار، وتوارق أدرار، ثم أراضي القبائل الزناتية حتى وصلت بهم إلى توات كما رأينا.

بعد أن احتلت فرنسا منطقة توات، عملت على تجنيد فرق المهارية فيها للحفاظ على أمن قواتها، وضمان بقائها، وتمكنت من ضم بعض أفراد القبائل السابق ذكرها إلى قواتها، واشتهرت هذه الفرقة باسم "مهارية توات"، حيث كانت من

مهامها التمكين لعبور القوات الفرنسية باتجاه أراضي توارق أدرار، و منطقة السودان الغربي، كما استخدمتهم كمرشدين لمرافقة القوافل التجارية.[44]

على الرغم من الخدمات الجليلة التي قدمتها الفرق المهارية، التي كانت تجوب الصحراء الجزائرية لصالح فرنسا وقواتها ومصالحها في منطقة الصحراء وجنوب الصحراء، إلا أنها كانت تحترس منهم أشد الاحتراس، وقد جاء على لسان العقيد قوشماز (Couchemese)، وهو أول قائد عسكري عين على الواحات، بعد أن أجرى دراسة معمقة حول انتشار قوة عسكرية مكونة من الشعانبة، تصرف لأفرادها رواتب، تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم في الحصول على الغداء، دون العودة إلى مصلحة التموين التابعة للجيش الفرنسي، "بأنهم يتمتعون باستقلالية قد تمكنهم من الاستفادة والتمرد".

ويعلق هذا العقيد على موافقته المبدئية لمثل هاته التنظيمات ، لكنه ينتقدها من جهة أخرى، حيث كتب "إن هذه الصفة جيدة واقتصادية وممكنة التطبيق، إلا أن الشعانبة لهم سمعة سيئة، ولازلنا نعتبرهم من القرون الوسطى، مولعين بالغزو، عديمي الثقة والولاء". وهكذا كانت الفرق المهارية بالنسبة للقادة الفرنسيين لا ثقة ولا ولاء لها بالرغم من الحاجة الضرورية لها للتوغل في الصحراء .

لم يكن القادة العسكريون للقوات المحتلة مرتاحة لفرق المهارية، فكثيرا ما تحولوا من الصف الفرنسي كعملاء وانضووا تحت المقاومات الشعبية، بل الفرقة المهارية لتوات هي نفسها التي أعلنت انطلاق ثورة الفاتح من نوفمبر في أقصى الجنوب الغربي الجزائري بتمردها، في ما سيعرف بمعركة حاسي صاكة في 17 أكتوبر 1956م.

رابعا: المجابهة الثقافية للاحتلال:

تعددت أشكال المقاومة بأقصى الجنوب الغربي الجزائري، ولم يكن حظ المقاومة الثقافية بالقليل، حيث شعر السكان برغبة الاستعمار في بسط نفوذ الثقافة الفرنسية في المنطقة. وقد بدأت الحاجة لمثل هذه المواجهة في الساعات الأولى للاحتلال، أولا لتسجيل أحداث ما جرى هناك، وثانيا كوسيلة للرد على دعاية

المحتل، خاصة في تحجيم خسائره المادية والبشرية، وتضخيم خسائر المجاهدين، وعدم الاعتراف بحجم المقاومة الشديدة التي تعرض لها في الكثير من المناطق، وذلك في إطار عمل دعائي استراتيجي هدفه التأثير المباشر على روح القتال، وإضعاف روح الصمود والمقاومة.

بحكم بساطة النظم الاجتماعية والسياسية والعسكرية في الإقليم آنذاك، ولما كان الموروث الشعبي الشفهي أحد أهم الأسلحة الثقافية التي يجيدها الكثير في تلك البقعة النائية، فقد وظف شعراء المنطقة موهبتهم في تسجيل ما حدث، والتعبير عن مواقف السكان من المحتل، وما كانت تجيش به الصدور تجاه الغازي، وذلك من خلال قصائدهم الشعرية التي لا زال صداها إلى اليوم.

أخذت المقاومة العسكرية للفرنسيين، مساحة كبيرة في هذه القصائد، وكانت المعارك التي دارت بين السكان وجنود الاحتلال مادة لها، فسجلت أحداثها، ووصفت ساحة الوغى، ودوي القنابل، وأصوات الرجال، وقعقعة السيوف والخناجر.

لم تنل ملاحم المقاومة عل اختلافها حيزا كالذي أخذته ملحمة إينغر بالجنوب التواتي، فقد ظلت في الضمير الجمعي إلى اليوم، ليس بحجم الخسائر التي تكبدها العدو فحسب، بل في كونها المنطقة الأضعف في توات، والتي اعتقد يوما أنها بوابته المفتوحة على مصراعيها لاحتلال الإقليم، لكن تسير الرياح بما لا تشتهي السفن فقد اصطدم بما لم يكن في الحسبان، فلقن الدرس، وتعطلت إستراتيجية احتلاله للمنطقة بل لنقل أنه اضطر إلى إعادة حساباته وتغيير إستراتيجية غزوه، فبعد أن ظن أن دخوله توات لا يكون إلا من جهة تيديكلت في الجنوب، فإن معركة إينغر جعلته يفتح جبهة جديدة من الشمال، أي من ناحية تيميمون.

إذن نظم الشاعر محمد بن عبد الرحمن السكوتي (1817-1965م) قصيدة في ثلاثين بيتا يؤرخ فيها لمعركة إينغر مطلعها:

يا أهل إينغر للسماء مجدكم سما وصيتكم يعلو وينتشر.[45]

وقد وصف الشاعر ساعة الالتحام، وكيف هاجم الثوار على العدو، حتى أثخنوا فيه فقال:

رمت حماهم كلاب بالروم مرسفة فحاق بالروم ما راموا وما مكروا.

ثم وصف خسائر العدو التي لا تعد، وكيف انسحب الفرنسيون مدحورين من المعركة وعلى أكتافهم جرحاهم وقتلاهم قائلا:

أبوا خزايا حيارى يحملون على أكتافهم جيفا ماواهم سقر.

ولبلاغة المنظر، الذي لا يكاد يصدق، خاصة من طرف السكان، الذين اندهشوا من قوة الجيش الفرنسي، فقد تعمد الشاعر وصف الجثث المرمية في الحفر، والدماء المسكوبة على الأرض ليبلغنا فداحة ما لحق بالمستعمرين في صورة بلاغية نادرة، فدماء جنود العدو صبغت ولونت الأرض بالأحمر:

فالأرض من دم كلماهم ملونة كما بقتلاهم قد ملئت حفر.[46]

أما الشاعر حمزة بن الحاج أحمد (1843-1916م)، فقد كتب قصيدته عن مقاومة إينغر، وقد عايش أحداث الاحتلال ورد الفعل المحلي، دائما في جنوب إقليم توات، وبالضبط بتيكورارين، كيف لا وهو أحد أبناء منطقة أقبلي، فأرسل بقصيدته من أقبلي إلى كافة القبائل التي صدت مجتمعة الزحف الفرنسي في هذه الناحية، حيث نجح المقاومون في توقيف العدو من التقدم، بسبب تكاثف جهود سكان القصور، فنهض الشاعر يصف تلك اللحمة التي تكونت بين مختلف عناصر المجتمع التواتي لمقاتلة العدو، فلا فرق بين أمازيغ مرابطين أو عرب أو شرفة، كيف لا ووحدة المجتمع أمام المحك، فإما حياة أو ممات، فجاءت قصيدته معبرة، عن روح التضامن تلك، وليس أبلغ ما قيل ذلك البيت الذي قال فيه:

جزاهم الله عنا الخير أجمعه شريفهم ومرابطا وعربانا.[47]

إن قوة المجتمع في قوة مقاومته وقوة مقاومته في قوة وحدته، ولولا هذه الوحدة التي تنادى عليها الجميع في المنطقة لما واجه العدو طلقة واحدة ولوقعت المنطقة لقمة سائغة، لكن الله قدر، فتداعت القبائل من كل حدب وصوب، وشارك الشباب إلى

جانب الشيوخ والنساء جنبا إلى جنب، فأبلوا البلاء الحسن واستحقوا شرف التثبيت والثبات، رغم فرق التسليح بينهم وبين العدو، وبذلك عطلوا تقدم العدو نحو توات الوسطى، وبعثوا روح الصمود في بقية القصور الأخرى ف:

تاالله لولاهم أضحت تيديكلت بل توات كل خلافا بينهم تبانا.
فثبتوا الناس ثبت الإله قلوبهم على الدين دنيانا و أخرانا.

ثم يعرج مجددا إلى أخبار ملحمة إينغر، وبلغة المؤرخ الي يكتب للتاريخ والأجيال يقم لنا حصيلة المعركة وخسائر العدو، الذي تفاجأ بعدد قتلاه الذين كانوا:

ستا وخمسين أهدوها إلى سقر موتى يلقون في الجحيم خسرانا.[48]

كما ساهم الشعر الفصيح في التأريخ للأحداث، فإن نوعا آخر من الشعر لم يكن ليفوت هذه الفرصة، ونعني بهذا اللون الشعر الشعبي الذي ينتشر في المنطقة بشكل كبير، فقد سجل الأحداث بلغة العامة. فهذا الشاعر الشعبي بوتقي عبد النبي بن محمد موسى كتب قصيدته بلغة بسيطة هي أقرب إلى ذاكرة الناس يقول في بعض أبياتها يصف استعدادات الفرنسيين، وحجم قوتهم وتسليحهم:

واحد راكب مخازني لاخر ساخر واحد قايد يامر بالمنف لينا.
اطلع فوق لعروق واقدات النيران تسمع حس الزهير عند لحنانا.[49]

كما يصف رحى المعركة ودوي الرصاص والمدافع التي استخدمتها فرنسا، والتي لم يكن للناس عهد بها، وكيف تفاجأ الجمع بهذا السلاح الفتاك، الذي كان ينصب فوق أعالي الكثبان الرملية، ويجعل منازل الناس وبساتينهم في مرمى النيران الحية:

من نصف الليل إلى إذا في نصف النهار صار القرطاس بنا عامل مزنا.
فاالعروق انصب مدافعوا قدت النار كسر لسوار كاملا كيف اخرجنا.

لقد سجل الشعر الملحون حجم الخسائر الفرنسية، إلى الحد الذي اضطر فيه العدو لإقامة مقبرة لدفن قتلاه في جهة عين صالح، وهذا ما يعبر عن أن الخسائر في الأرواح فاقت التوقعات:

وارفد في موتوا على باب واجعل في قبلت عين صالح جبانا.

وفي مقاربة دينية تاريخية يشبه الشاعر عمل الأبطال بعمل وجهاد الأوائل السابقين مع الكفار، ولما لا وهي معركة حضارية يوظف فيها السياسي والديني والثقافي جنبا إلى جنب:

يحجب رجال إينغر ماداوسوا عملوا مثل ما عمل علي وانبنا.

لي كذب يشوف ما عملت لبطال عادوا مثل لجراد جيفا فالجبايا.

لقد اختلفت تقديرات عدد القتلى الذين سقطوا، وهذا طبيعي في كل المعارك، حيث تختلط الحقائق بالدعاية، خاصة وان العدو دأب على إخفاء أعداد قتلاه وحجم خسائره رفعا لمعناويات جنوده وتفادي إحباطهم، إضافة إلى الخلط في تمييز وعد الجرحى البسطاء والجرحى في حالة الخطر، والجرحى في حكم الأموات والقتلى. أما شاعرنا فقد أحصى ثمانون قتيلا في صفوف العدو بينهم قادة وضباط كبار:

قتلنا منكم ثمانين إلا القبطان عسكروا سويريان شي ماسولنا.[50]

الخاتمة:

شكلت الحملات الاستكشافية الفرنسية في الصحراء الجزائرية مند 1864م، مقدمة للتوغل في أقصى الجنوب الغربي الجزائري، حيث تمكنت من تطويق المنطقة من ثلاث جهات رئيسية، انطلاقا من مدينة المنيعة، التي شكلت نقطة الارتكاز الرئيسة للقوات الاستعمارية بوسط الصحراء.

جوبهت القوات الاستعمارية المتوغلة في أقصى الجنوب الغربي الجزائري بين 1998-1901م بمقاومة عسكرية كبيرة حاولت من خلال الإمكانات المتاحة، صد التوغل الفرنسي أو تعطيله على الأقل، فكانت معارك اقسطن-عين صالح- الدغامشة- إنغر- فاتيس- لمطارفة وشروين عنوان الرفض، وهي تدرك تماما حجم الهوة التسليحية بين الطرفين.

وظف السكان المحليون الموروث الشعبي (القصائد-الأغاني...) لتسجيل أحداث المرحلة وحفظ الذاكرة الوطنية من التشويه والاندثار، خاصة وأن التاريخ يكتبه المنتصر، الذي عادة ما يشوه صورة المنهزم، فكانت قصائد الشاعر عبد الرحمن السكوتي و حمزة بن الحاج أحمد وبوتقي عبد النبي بن محمد موسى وغيرهم أدابير للتاريخ، وصورة للدعم النفسي، وإلهاب للحماس، وسجل للذاكرة من التحريف، فشكلت نوعا من المقاومة الثقافية –على بساطتها– والتي عرف بها الشعب الجزائري، طيلة تاريخه المقاوم، فكانت بحق إبداعا أدبيا ، وعنوانا لرفض الخضوع للغزاة المحتلين.

الهوامش:

[1] فرج محمود فرج: **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين**، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر: 1984، ص 78.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون: **كتاب العبر**، ج6، دار الكتاب اللبناني، بيروت: 1981، ص195.

[3] حول هذه المقاومات أنظر الدراسة القيمة الأستاذ يحي بوعزيز: **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرون**، ج2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر.

[4] يحي بوعزيز: **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، دار الهدى، الجزائر: 2004، ص21.

[5] يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص546.

[6] ناصر الدين سعيدوني: **منطلقات وآفاق**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 2000، ص83.

[7] Martin(Alfred.G.P): L'action francaise dans le Sahara, **Révue Africaine**, N37 ,A1893, P.376.

[8] صالح فركوس: **تاريخ الجزائر ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، المراحل الكبرى**، دار العلوم، الجزائر: 2005، ص200.

[9] أحمد عبد العزيز: **صحراؤنا في مواجهة الاستعمار**، دار الرحاب، الجزائر، ص 47.

[10] حول هذه الثورة أنظر: عبد الحميد زوزو: **ثورة بوعمامة (1881–1908)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1981، ج1.

[11] عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص6.

[12] إبراهيم مياسي: **توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري1881–1912**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر: 1996، ص119.

[13] Malte Brum: **Résumé historique et géographique de L'éxploration de Gerhard Rolfs a Touate et In Salah**, Paris: 1866, P.67.

[14] حول مضامين هذه الدراسة والفوائد التي ستجنيها فرنسا من احتلالها لأقصى الجنوب الغربي الجزائري أنظر دراسة دي بورتي:

Deporter: **La question de Touate**, **Sahara Algérienne**, Alger: 1891.

[15] محمد باي بلعالم: **الرحلة العلية إلى منطقة توات**، دار هومه، الجزائر: 2005، ص 5.

[16] Martin (A.G.P): **Quatre Siècles d'histoire marocaine au Sahara**, Libririe Lélix Alcan,Paris: 1923, P.296.

[17] Maire (A) et Savelli (A): In Salah, article dans un Révue son références, P.372.

[18] هي فرقة من الجزائريين يعملون مع فرنسا كجنود مرتزقة.

[19] هم فرقة الجمالة (يستخدمون الجمل)، من القبائل العربية الموجودة بالمنطقة، جندتهم فرنسا بسبب معرفتهم بطرق الصحراء ولضمان أمن وطاعة السكان بعد أن تم لها احتلال المنطقة.

[20] نيكلو عبد القادر:"المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي لتوات"، **مجلة النخلة**، ع1، مارس 2005.

[21] Martin (A.G.P): **Les Oasis sahariennes**, Ed de l'inprimerie Algérienne, Alger: 1908, P.136.

[22] الهيلالي بن امبارك: **بذرة الإخبار من واد صالح إلى عين صالح (تاريخ توات)**، مخطوط بخزانة سليماني علي، أدرار، دص.

[23] قلوم المكي: "الغزو العسكري الاستعماري لأقصى الجنوب والمقاومات المسلحة الشعبية لمنطقة توات وتيديكلت وتيجورارين في مجابهة هذا الغزو"، **مجلة أفاق التنمية**، أدرار، س1987، ص38.

[24] الشيخ مولاي التهامي الغيتاوي: **لفت الأنظار فيما وقع من النهب والتخريب والدمار لولاية أدرار إبان الاحتلال والاستعمار**، مخطوط، ص43.

[25] Voinot (L): **Le Tidikelt**, Ed Imprimerie Typographique et Lithographique L'fouque, Oran: 1909, P.93.

[26] Martin (A.G.P): **Quetre Siécles**, Op cit, P.326.

[27] Germaine (Tillion): **La Conquéte Des Oasis Sahariennes (1900–1901)**, Paris: 1903, P.25.

[28] Mohamed Belghit: **La Résistance Algérienne au Sud ouest du Sahara (1852–1930)**, ed Benifunif, 1994, P.18-20.

[29] إبراهيم مياسي: "مئوية احتلال تيديكلت "، **جريدة اليوم**، بتاريخ2000/3/9، ص 12. وأنظر: Martin (A.G.P): **Les Oasis**, Op cit, P.158.

[30] قلوم المكي، المرجع السابق، ص 41.

[31] عبد الرحمن لمحرزي: "أدرار من مقاومة المد الاستعماري إلى التحرير"، **مجلة القصر**، منشورات دار الثقافة لولاية أدرار، ع8، ص17.

[32] Gautier (E-F): **La Conquéte du Sahara**, Paris: 1925, P.86.

[33] إبراهيم مياسي: **توسع الاستعمار الفرنسي**، مرجع سابق، ص115.

[34] نور الدين بوحامدي: **المقاومة الشعبية بمنطقتي الأهقار وتيديكلت**، محاضرة ألقيت في الملتقى الوطني الأول " المقاومة الشعبية في الجنوب الجزائري"، عين صالح من 22 إلى 24 ديسمبر 1997. وأولف مدينة تبعد 150 كلم من جهة الجنوب الغربي لعين صالح.

[35] محمد ميرازي: **المجابهة المحلية في المقاومة الصحراوية بأقصى الجنوب**، محاضرة ألقيت في الملتقى الوطني الأول " المقاومة الشعبية في الجنوب الجزائري"، عين صالح من 22 إلى 24 ديسمبر 1997.

[36] يتبع إقليم توات إلى الجنرال سرفير.

[37] دحمان تواتي، عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم: **دور أقاليم توات خلال الثورة الجزائرية 1956-1962**، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر: 2008، ص21.

[38] قلوم المكي: الغزو العسكري الاستعماري لأقصى الجنوب والمقاومات المسلحة الشعبية لمنطقة توات وتيديكلت وتيجورارين في مجابهة هذا الغزو،**مجلة أفاق التنمية**، أدرار، ع2/ 1987، ص 44.

[39] قلوم المكي، المرجع السابق، ص 44.

[40] لمحرزي عبد الرحمن، ص18.

[41] أحمد مولاي إبراهيم: **بلدية متليلي الشعانبة نبذة تاريخية**، متحف المجاهد متليلي وثيقة غير منشورة، ص10.

[42] دحمان تواتي، عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم ، المرجع السابق، ص 23.

[43] Voir Blandin de thé: **cinquantenaire des compagnie Meharistes**.

[44] بوغلالة سليمان: **الشعانبة ومساهماتهم في المقاومة الوطنية ما بين 1851-1918**، متحف المجاهد متليلي، وثيقة غير منشورة، ص5.

[45] مجموعة مؤلفين: "إطلالة حول أدب المقاومة بالجنوب الغربي للجزائر"، **مجلة أفاق التنمية**، أدرار، ع2/1987، ص19.

[46] مجموعة مؤلفين، المرجع السابق، ص19.

[47] المرجع نفسه، ص 17.

[48] المرجع نفسه، ص 18.

[49] المرجع نفسه، ص21.

[50] المرجع نفسه، ص21.